

## قصة المشهر: فاقصص المقصص لعلهم يتفكرون << المسر كل المسر في الأرواح >> (1)

قد ينبثق الفرعان من أصل واحد ويهبط الأخوان من صلب واحد، وتجمعُهما رحم واحدة ويعيشان عيشة واحدة — ثم يكون هذا في مُستوى وهذا في مُستوى دونه بمنازل، ما ذلك الاختلاف مع ذلك الاتفاق إنما لسر في النفس هو خفي كحقيقة النفس.

وهذه القصة التي نقلها عن ابن أبي الحديد في الأخوين الكريمين الشريفيين العظيمين: أبي الحسن الرضي وأبي المقاسم المرتضى — عبرة بالغة في ذلك، قال:

>> حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسفرايني المقيه الشافعي قال: كنت يوماً عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابن سُلطان الدولة (من بني بويه) فدخل عليه الرضي أبو الحسن فأعظمه وأجله ورفع من منزلته وخلّى ما كان بين يديه من المقصص والرقاع وأقبل عليه يحدثه إلى أن انصرف، ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو المقاسم رضي الله عنه فلم يعظمه ذلك التعظيم ولما أكرمه ذلك الإكرام وتشاغل عنه برقاع يقرأها وتوقيعات يُوقع بها فجلس قليلاً وسأله أمراً فقضاه ثم انصرف.

قال أبو حامد: فتقدمت إليه وقلت أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو المقيه المتكلم صاحب الفنون وهو الأمثل والأفضل منهما، وإن ما أبو الحسن شاعر، قال: فقال لي إذا انصرف الناس وخلص المجلس أجبتك عن هذه المسألة، وكنت مُجمعا على الانصراف فجاءني أمر لم يكن في الحساب فدعت الضرورة إلى مُلازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحداً فواحداً فلم يبق إلا غلمانه وحجابه دعا بالطعام فلم أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثر غلمانه ولم يبق عنده غيري قال لخادم له هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام وأمرتك أن تجعلهما في السُفط المُلاني فأحضرهما، فقال هذا كتاب الرضي، اتصل بي أنه قد ولد له ولد فأنفدت إليه ألف دينار وقلت هذه للقبالة فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم وذوي مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال، فردها وكتب إلي هذا الكتاب فاقرأه.

قال أبو حامد: فقرأته فإذا هو اعتذار عن الردّ ومن جملته: >> إننا أهل بيت لا يطّلع على أحوالنا قبالة غريبة وإنّما عجانزنا يتولّين هذا الأمر من نساننا ولسن ممن يأخذن أجره ولما يقبلن صلة >> .

قال الوزير فهذا هذا، وأما المرتضى فإننا كنا قد وزعنا وقسطنا على الأملاك ببادوريا (بالجانب الغربي من بغداد) تقسيطاً نصره في حضر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى فأصاب ملكاً للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالدهرية من التقسيط عشرون درهماً ثمناها دينار واحد وقد كتب إلي منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب — فاقرأه.

قال أبو حامد: فقرأته فإذا هو أكثر من مائة سطر يتضمّن من الخُضوع والخُشوع والاستمالة والمهزّ والمطّاب والسؤال في إسقاط هذه الدرهم عن أملاكه المُشار إليها ما يطول شرحه.

قال الوزير فخر الملك : فأَيُّهما ترى أولى بالمتَّعظيم والمتَّجليل . هذا العالم المُّتكلِّمُ المفقِيه الأُوحد ونفسُهُ هذه النَّفس أم ذلك الذي لم يُشهر إلَّا بالشَّعر خاصَّة ونفسُهُ تلك النَّفس ؟ فقلت : وفق الله تعالى سيِّدنا الوزير فما زال موفقًا ، والله ما وضع سيِّدنا الوزير الأمر إلَّا في موضعه ، ولما أحلَّه إلَّا في محله ، وقمتُ فأنصرفت >> .

وفي هذه القصَّة إلى ما قصدناه منها نموذج من مجالس الوُزراء وآدابهم ومُعاملتُهُم للنَّاس على منازلهم وضبطهم لمكاتبهم والعناية بالبري وحضر الأُنهار ممَّا ازدهر به عمران العراقي من النَّاحية في تلك العُصور أي ازدهار وآثار تلك العناية باقية على الزَّمان إلى اليوم .

مجلة الشَّهاب ، المجلد الخامس من المجلد الخامس عشر . [1]